

# نزهة في كتاب البخلاء

د. سام عمار\*

الجاحظ ، حياته ومؤلفاته :

الجاحظ بالبصرة عام ١٥٠ هجرية كما ذكر ياقوت في معجمه نقلاً عن الجاحظ ، ويرجح بعض الباحثين أن ولادته كانت سنة ١٥٩ هجرية (١) . وقد توفي عام ٢٥٥ هجرية . وهو عمرو بن بحر الكناني بالولاء ، لقب بالجاحظ وكنى بأبي عثمان . نشأ فقيراً ، فخالط المسجدين من أهل العلم والأدب فأخذ عنهم . اُكترى حوانيت الوراقين وبات فيها للمطالعة ، وانصرف يجلس إلى علماء البصرة ، ويستمتع من العرب الخلل في المربد .

وفي خلافة المأمون تصدّر ديوان الرسائل ، ثم استعفى منه بعد ثلاثة أيام . واتصل بمحمد بن عبد الملك الزيات وزير المعتصم وقدم له كتاب الحيوان ، وأمضى بصحبته أمتع أيام حياته . ومع خلافة المتوكل وظهر القاضي أبي دؤاد علي بن الزيات هرب الجاحظ ، وقد خاف على نفسه ، ولكن القاضي عفا عنه . وبعد انقطاع عام كامل عاد إليه الجاحظ وقدم له كتاب البيان والتبيين (٢) . أما كتاب البخلاء فالمرجح ، تبعاً لطله الحاجري ، أنه كُتب في أواخر عهد ابن الزيات وأوائل إصابة الجاحظ بالشلل ، في الوقت الذي كتب فيه

(\*) باحث من سوريا ، رئيس قسم المناهج وأصول التدريس في كلية التربية بجامعة دمشق .

رسالة الجد والهزل<sup>(٣)</sup> . وعلى ذلك يكون الجاحظ كتب كتبه الثلاثة وهو يعاني من الشلل الذي دام ، على تقدير عبد السلام هارون ، أكثر من اثنتين وعشرين سنة سبقت وفاته<sup>(٤)</sup> .

وقد ترك الجاحظ مؤلفات غزيرة متنوعة الموضوعات ، أثبت له منها ياقوت في معجم البلدان مئة وثمانية وعشرين مصنفاً<sup>(٥)</sup> . وذكر ابن حجر في لسان الميزان : أن ابن النديم سرد كتبه التي بلغت مئة ونيفاً وسبعين كتاباً<sup>(٦)</sup> . ولكن من مفارقات القدر أن الكتب التي أحبها الجاحظ وأفنى عمره في سبيلها لم ترأف به في نهاية عمره ، فكان موته بسقوطها عليه<sup>(٧)</sup> .

## ٢ - عصره وثقافته :

عاش الجاحظ في العصر الذهبي للثقافة العربية: عصر الرشيد والمأمون، حين كان التأليف والترجمة في شتى أنواع المعرفة على أشده . فازدهرت العلوم والآداب والفنون ، إذ هيئت لها السبل، وسخر في سبيلها المال ، فانتشرت ، وكان الجاحظ أحد أعلامها البارزين .

وقد تمثل الجاحظ ثقافة عصره على تعدد مشاربها ، فقد أخذ اللغة عن الأعراب الذين لا تشوب لغتهم شائبة ، فملك ما لم يملكه غيره من الكتاب ، واتصل بشيوخ العلم وأئمة الأدب فأخذ عنهم وقرأ لهم ، وتعلم عليهم ، قال عنه أبو هفان : « لم أر قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ ، فانه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته ، كائناً ما كان ، حتى إنه كان يكتري دكاكين الوراقين ، ويثبت فيها للنظر »<sup>(٨)</sup> . وللجاحظ صفحات رائعة في نعت الكتاب<sup>(٩)</sup> وفضل الكتاب<sup>(١٠)</sup> تدل على عمق تعلقه به وإيمانه بوظيفته . ولعل مما ساعد في تفتح هذه الشخصية الفذة أن عصر المأمون كان عصر انفتاح ثقافي وحرية فكرية ، « احتدمت فيه الفتنة بين أصحاب الفقه والحديث من جانب ، والمعتزلة وأصحاب الفكر الحر من جانب ، وكل يؤدي مذهبه ، ويجهر برأيه دون أن يخشى بأساً أو رهقاً »<sup>(١١)</sup> . والجاحظ ، بعد ، أحد أئمة المعتزلة ، وسيد من سادات الجدل ، و « زعيم البيان العربي في

قوته وأسرّه ، وفي دقته وصحته ، وحلاوته وجماله وفنه « على حد قول عبد السلام هارون (١٢) .

### ٣ - منهجه في التأليف :

الجاحظ أديب قبل كل شيء ، والأدب متعدد الألوان ، متنوع الموارد ، غزير المادة ، فيه القصص والنوادر والأخبار ، وفيه الشعر والخطابة ، وفيه الهزل والمزاح ، وفيه الجِدِّ والوقار . والجمع الممتع بين هذه الأمور جميعها هو المنهج الذي عبر عنه الجاحظ في غير موضع من كتاب **الحيوان** . يقول في الجزء الثالث : (١٣) « على أنني عزمت - والله الموفق - أنني أوشح هذا الكتاب ، وأفصل أبوابه ، بنوادر من ضروب الشعر وضروب الأحاديث : ليخرج قارئ هذا الكتاب من باب إلى باب ، ومن شكل إلى شكل . فاني رأيت الأسماع تمل الأصوات المطربة ، والأغاني الحسنة ، والأوتار الفصيحة إذا طال ذلك عليها . وما ذلك إلا في طريق الراحة التي إذا طالت أورثت الغفلة . وإذا كانت الأوائل قد سارت في صغار الكتب هذه السيرة كان هذا التدبير لما طال وكثر أصلح . وما غايتنا من ذلك كله إلا أن يستفيدوا خيراً » .

إنه إذا كالنحلة ينتقل من زهرة إلى زهرة ، وما غايته من ذلك إلا دفع السأم والملل عن القارئ ، وشده إلى الكتاب دائماً ، فالرتابه أياً كان موضوعها تورث الغفلة . وإن كان أحمد أمين قد حمل الجاحظ وحده تبعة هذا التشتت أو هذه الفوضى التي سادت التأليف في كتب الأدب ، فلعل في حكمه شيئاً من الجور ، لأن الجاحظ أشار صراحة إلى أن هذا المنهج قد ساد قبله في صغار الكتب .

والجاحظ يمزج في كتبه الجد بالهزل ، والمزاح بالوقار ، ولكن كل شيء بمقدار ، ولغاية محسوبة . يقول في الجزء الأول من كتاب **الحيوان** (١٤) :

« وقد غلطك فيه بعض ما رأيت في أثنائه من مزح لم تعرف معناه ، ومن بطالة لم تطلع على غورها ، ولم تدرك لِمَ اجتلبت ، ولأي علة تكلفت ، وأي شيء أريخ فيها ، ولأي جد احتمل ذلك الهزل ، ولأي رياضة تجشمت تلك البطالة . ولم تدرك أن المزاح جد إذا اجتلب ليكون علة للجد ، وأن البطالة وقار ورزانة إذا تكلفت لتلك العاقبة » .

والملاحظ يكرر بعض الملح والأخبار والنوادر في عدد من كتبه فنجد بعض نوادر البغلاء مبثوثة في كتابي الحيوان ، والبيان والتبيين ، وبعض الأخبار والطرف المذكورة في كتاب الحيوان معادة في كتاب البيان والتبيين .

أما المجون فسمه " بارزة في التأليف لدى الملاحظ . فالأحاديث الكثيرة عن الخصاء والخصيان ، والجواري والغلمان ، والغريب في سلوك الإنسان والحيوان ، تشغل حيزاً غير صغير من كتابي البيان والتبيين والحيوان .

#### ٤ - الفكاهة في أدب الملاحظ :

سنتناول هذا الموضوع من خلال كتاب البغلاء الذي خصصه الملاحظ ، كما يدل على ذلك عنوانه ، لأخبارهم وطرفهم ونوادرهم وحكاياتهم . سنتحدث عن الكتاب : مضمونه وأسلوبه ومنهجه وصلته بعصره ، وعن السمات الفنية لأسلوب الفكاهة ، وسنعرض نماذج منها .

#### ١/٤ - الملاحظ وكتاب البغلاء :

حسبنا ، قبل أن نتناول الفكاهة في كتاب البغلاء ، أن نذكر أمرين :

**أولهما :** أن الملاحظ كان بارعاً في السخرية في رسالة التربيع والتدوير أيضاً ، وقد بدا أسلوبه فيها مشابهاً لأسلوب إيفانوس الباروسي الذي كان ، كما يقول العلامة « إيجيه » (١٥) : « موهوباً في ابتداعه المدائح والأهاجي غير المباشرة ، وهما صورتان من صور السخرية التي تقوم على الهجاء الذي يشبه أن يكون مديحاً ، والمدح الذي يشبه أن يكون هجاء » .

**وثانيهما :** أنه جعل من رسالته في أحمد بن عبد الوهاب « بدعاً في التهكم والسخرية » ، لأن غناه بالمادة المعنوية التي هيأتها له نزعة الأدبية وروحه العلمية ، مكناه من أن يمتح منها كيفما شاء (١٦) .

إن أدب الملاحظ يعكس إذاً نزعة الكلامية والجدالية فيما يخص الأسلوب : ونزعة الواقعية والعلمية فيما يخص الوصف . ويعزز ذلك كله معرفة عميقة بالحياة الاجتماعية ومكوناتها المختلفة .

فان عدنا إلى موضوع البخلاء وطرحنا السؤال التالي : هل ابتدع الجاحظ الكتابة فيه ابتداءً أو سبقه إلى ذلك آخرون ؟ كان الجواب بالنفي ؛ فقد سبقه إلى ذلك الأصمعي<sup>١٧</sup> وأبو الحسن المدائني وأبو عبيدة . ولكن الجاحظ في تناوله لموضوع البخل اختلف مع سابقيه الذين دفعتهم إلى ذلك «غاية سياسية»<sup>(١٧)</sup> لا تمت إلى الأدب أو الفن بصلة أو غاية من غايات المعرفة المجردة ، ولذلك كانت بعيدة عن تصوير الحياة الاجتماعية ، وتحليل البخل والحركات النفسية التي تداخله<sup>(١٨)</sup> . لقد تناول الجاحظ الموضوع بتأثير من النزعة الفنية التي كانت وحدها حافزة إليه وصاحبة الأمر في تصريفه وتلوينه ، فجاء على يديه «موضوعاً أدبياً خالصاً ، ومتعة فنية رائعة . وكان رهيناً بالأغراض الموقوتة التي أثير من أجلها ، فصار خالداً خلود النفس الانسانية : يمتح منها ، ويصدر عنها ولها»<sup>(١٩)</sup> .

وقد صور الجاحظ في كتاب البخلاء الحياة الاجتماعية التي كانت سائدة في عصره ، فلم تعد الحياة في الدولة الاسلامية بسيطة كما كانت في صدرها وبداياتها ، لقد تطور المجتمع وتشعبت مناحي الحياة وتنوعت مطالبها ، وبذلك غدا المال هدفاً وغاية بذاته ، بدلاً من أن يكون وسيلة . ويذكر طه الحاجري أن أحد الأمثال التي كانت سائرة في مدينة كبفداد هو : «المال المال وما سواه محال»<sup>(٢٠)</sup> .

ثم إن التجارة التي ازدهرت في بغداد والبصرة أدت إلى نشوء طبقة من التجار الأثرياء في هاتين المدينتين ، ولاسيما البصرة التي كانت ثغراً بحرياً . وقد كان هؤلاء بطبعهم أكثر حرصاً على المال وعلى تكديسه ، حتى لقد قرن الثعالبى صفة البخل بمهنة التجارة فقال : «ومعلوم أن البخل والنظر الطفيف مقرون بالتجارة ، والتجار هم أصحاب التريبح والتكسب والتدنيق»<sup>(٢١)</sup> .

وإذا كان الجاحظ ولد في البصرة ونشأ فيها وخالط تجارها فمن الطبيعي أن يكون صور شخصيات أغنيائها وبخلائها وألوان حياتهم . إن أبطال نوادره وقصصه واقعيون وحقيقيون ، ولكنه كان يذكر بعضهم صراحة ويمعن في كتمان أدنى التفاصيل التي تتعلق ببعضهم الآخر ، لأسباب يذكرها في المقدمة فيقول :

« هذا كتاب لا أغرك منه ولا أستر عنك عيبه ، لأنه لا يجوز أن يكمل لما تريده ولا يجوز أن يوفى حقه كما ينبغي له . لأن ههنا أحاديث كثيرة متى أطلعنا منها حرفاً عُرِف أصحابها ، وإن لم نسمِّهم ولم نره ذلك بهم ، وسواء سميناهم أو ذكرنا ما يدل على أسمائهم ، منهم الصديق والولي والمستور والمتجمل ، وليس يفي حسن الفائدة لكم بقبح الجناية عليهم ؛ فهذا باب يسقط البتة، ويختل به الكتاب لا محالة (٢٢) (٠٠٠) » .

أما موضوعات الكتاب فقد ذكرها الجاحظ في مقدمته حين قال : « وقلت : اذكر لي نوادر البخلاء واحتجاج الأشعاء ، وما يجوز من ذلك في باب الهزل وما يجوز منه في باب الجد ، لأجعل الهزل مستراحاً والراحة جماماً ، فإن للجد كدّاً يمنع من معاودته ولا بد لمن التمس نفعه من مراجعته ( ٠٠٠ ) » (٢٣) .

إن كتابه يتناول نوادر البخلاء ، واحتجاج الأشعاء ، ولكنه يختمه بعديث عن « أطراف من علم العرب في الطعام » ويدخل تحته ما ذكره من حديث القرى عند العرب ، ومن دلائل الكرم لديهم . وهو يعرض مذهب معاصريه أمثال سهل ابن هارون والحزامي والحارثي والكندي والثوري وابن أبي المؤمل وابن التوأم والأصمعي ، في الاقتصاد والنفقة وتثمين المال ، فيورد حججهم في طرائق شتى تأخذ تارة مظهر الجد والرزانة ، وتأخذ تارة أخرى صورة الهزء والسخرية والتهكم . ويقدم ذلك في شكل رسالة مطولة أو حوار مستفيض أو حديث مسهب . ويتخلل ذلك بين الفينة والفينة حوادث قصار وطرف صغيرة ونوادر موجزة . وغرضه من ذلك - كدأبه في التأليف - أن يحتفظ بانتباه القارئ مشدوداً إليه ، وأن يدفع الملل والسأم عنه . ولكن كل شيء بمقدار ؛ فإذا كان الجاحظ حدد قوائد كتابه بقوله : « ولك في هذا الكتاب ثلاثة أشياء : تبَيِّنُ حجة طريفة ، أو تعرف حيلة لطيفة ، أو استفادة نادرة عجيبة ، وأنت في ضحك منه إذا شئت وفي لهو إذا مكلت الجد » (٢٤) فإنه يبيِّن كذلك حدود الهزل في كتابه بقوله :

« وللضحك موضع ومقدار وللمزح موضع ومقدار ، متى جاوزهما أحد وقصر عنها أحد ، صار الفاضل خطلاً والتقصير نقصاً . فالناس لم يعيبيوا الضحك إلا بقدر ، ولم يعيبيوا المزح إلا بقدر ، ومتى أريد بالمزح النفع ، وبالضحك الشيء الذي جعل له الضحك ، صار المزح جداً والضحك وقاراً » (٢٥) .

ثم إن بعض ما جاء في الكتاب موضوع أو مولّد ، ولا سيما تلك الأحاديث المستطيلة والرسائل المستفيضة والقصص المفتنة التي ضمنها كتابه هذا ونسبها إلى هذا وذاك من رجال عصره ، فإن أسلوبها وطريقة وضعها ومنحى الاستدلال فيها ، كل ذلك شاهد قوي الحجة واضح الدلالة على أن الجاحظ هو صاحبها (٢٦) .

والجاحظ نفسه تحدث عن التوليد في مقدمته فقال (٢٧) : « ولو أن رجلاً ألزق نادرة بأبي الحارث جُمَيْن والهيثم بن مطهر وبمزبّد وابن أحمر ، ثم كانت باردة ، لجرت على أحسن ما يكون ، ولو ولّد نادرة خارة في نفسها مليحة في معناها ، ثم أضافها إلى صالح بن حنين وإلى ابن النوّاء وإلى بعض البُغضاء لعادت باردة ولصارت فاترة ، فإن الفاتر شر من البارد » .

## ٢/٤ - السمات الفنية للفكاهة في كتاب البخلاء :

كان الجاحظ ، كما ذكرنا ، أميراً من أمراء البيان العربي ، وكان واسع الثقافة غزير المعارف ، وكان إماماً معتزلياً متقناً لفن الجدل بارعاً فيه ، وكان واقعياً في أدبه مولعاً بابرار أدق التفاصيل فيما يصفه ، وكان ملماً إماماً كبيراً بجوانب الحياة الاجتماعية في عصره ، وكان بطبعه « رجلاً مرحاً ضاحكاً متطلق النفس ، يحب الحياة والاستمتاع بها » (٢٨) . كما كان ، إلى ذلك ، « رجلاً سهلاً الجانب لين الحاشية محباً للناس عطوفاً عليهم ، لا يضيق بهم ، ولا يتبرم بعيوبهم ، ولا يسخط عليهم » (٢٩) . وهذه الصفات الرائعة كلها جعلت منه رجلاً فذاً ، يميزه أسلوب فريد في الكتابة والتأليف ، إذ « لم يكن همّه همّ غيره من المؤلفين ، في الجمع والرواية والحفظ ، وإنما كان وكدّه أن يبتكر ، وأن يُطرف ، وأن يخلق للناس بديعاً ، يمسح على جميعها بالدعابة والهزل ، ويشيع الفكاهة في أثناء الكلام . فجمع بذلك قلوب القارئ إليه ، واستولى منهم بذلك على شتى ميولهم إلى ما يكتب (٠٠٠) وطرق الجاحظ في كتابته أبواباً عجيبة ، وتقرب إلى العامة ، وحرص أشد الحرص على استرضائهم . ولم ينسَ في ذلك أن يستميل إعجاب الخاصة في المعارف العالية والسياسات الرفيعة » (٣٠) .

ولقد تمثلت في كتاب **البخلاء** هذه الخصائص الرائعة لفن الكتابة الجاحظية . على أن الجاحظ كان يحسن<sup>٢٠</sup>، في بعض الأحيان ، أن القلم ، مهما برع صاحبه وأبدع ، غير قادر على الوصول إلى كُنْه الشيء ، وعلى بلوغ حدوده وحقائقه . مثال ذلك قصة أبي جعفر ، التي ابتدأها بقوله : « ولم أرَ مثل أبي جعفر الطرسوسي » ، ثم سرد الحادثة ، فقال : « زار قوماً فأكرموا وطيبوه ، وجعلوا في شاربه وسببته غالية ( أخلاط من الطيب والمسك ) ، فحكته شفته العليا ، فأدخل إصبعه فحكها من باطن الشفة ، مخافة أن تأخذ إصبعه من الغالية شيئاً إذا حكها من فوق » . وعلّق على الوصف بقوله : « وهذا وشبهه إنما يطيب جداً إذا رأيت الحكاية بعينك . لأن الكتاب لا يصور لك كل شيء ، ولا يأتي لك على كُنْهه ، وعلى حدوده وحقائقه » ( ٢١ ) .

ولكن أبرز السمات الفنية لتناول الفكاهة في كتاب البخلاء اثنتان : البراعة في الوصف والدقة في التصوير ، ثم السخرية والتهكم .

#### ١/٢/٤ - البراعة في الوصف والدقة في التصوير :

كان الجاحظ بارداً في وصفه ، دقيقاً في تصويره ، فهو لا يترك شاردة ولا واردة ، ولا صغيرة ولا كبيرة ، ولا همسة ولا لمسة ، ولا حركة عابرة ولا مستشفة ، مهما دقت أو شقت ، إلا التقطها ودونها أو عبّر عنها ، يسعفه في ذلك أسلوب " طيع العبارة رشيقتها ، غزير المعنى دقيقه ؛ ومنهج علمي يقوم على الدقة في الملاحظة ، والعمق في الاستقصاء ، والتتبع الرصين المتأمل . ولذلك لم يكن بحاجة إلى أن يزين أسلوبه بأنواع التشابيه والاستعارات إلا بالقدر الذي يبدو فيه التزيين طبيعياً بعيداً عن التكلّف .

ثم إنه كان مبدعاً في البحث عن الدواعي النفسية التي تقود شخوصه إلى التعبير بالطريقة التي بها يعبرون ، ويحاولون عبرها أن يخفوا معالم بخلهم بالحديث عن الكرم أو اصطناعه أو بذله . فكان بذلك سالكاً - في القرنين الثاني والثالث الهجريين - مسلك المحللين النفسيين الذين ركزوا جهودهم في مطلع القرن العشرين على استبطان اللاشعور وتجلياته في النفس البشرية عبر الهفوات



والسقطات وزلات القلم واللسان . والجاحظ بذاته يعبر عن ذلك في مقدمته بقوله : « ولا بد من أن تعرفني على الهنات التي نَمَت على المتكلفين ودلت على حقائق المتموهين ، وهتكت عزَّ أَسْتَار الأدياء وفرقت بين الحقيقة والرياء ... » (٢٢) ، بعد أن قدم عرضاً رائعاً لنفسياتهم وتسويغهم لبخلهم وشحهم بشتى المذاهب والأساليب .

يقول الجاحظ في مقدمة الكتاب : (٢٣) « (...) وَلِمَ سَمَّوْا البخل إِصلاحاً والشح اقتصاداً ، وَلِمَ حَامَوْا عن المنع ونسبوه إلى الحزم ، وَلِمَ نصَبُوا للمواساة وقرنوها بالتضييع ، وَلِمَ جعلوا الجود سرفاً والأثرة جهلاً ، وَلِمَ زهدوا في الحمد وقلَّ احتفالهم بالندم ، وَلِمَ استضعفوا من هش للذكر وارتاح للبذل ، وَلِمَ حكموا بالقوة لمن لا يميل إلى ثناء ولا ينحرف عن هجاء ، وَلِمَ احتجوا لظِلْف العيش على لينه ولمره على حلوه (...) وَلِمَ رغبوا في الكسب مع زهدهم في الانفاق ، وَلِمَ عملوا في الغنى عمل الخائف من زوال الغنى ولم يفعلوا مع الغنى عمل الراجي لدوام الغنى ، وَلِمَ وفَّروا نصيب الخوف وبخسوا نصيب الرجاء ... » (٢٤) .

كان الجاحظ إذاً فناناً مبدعاً في وصفه الحسي لحركات البخل وسكناتهم ، والوصف النفسي لهناتهم وهفواتهم . فأنك واجد في كتابه أمثلة كثيرة رائعة لكل ما ذكرناه . وإن كنا لا نستطيع في هذه الأسطر القليلة أن نحشد أكثرها ، فانا موردون بعض الأمثلة لها .

إن من أدق الوصف الواقعي لدى الجاحظ ما ذكره عن علي الأسواري ، على لسان الحارثي ، وكلاهما بخيل . قال الحارثي :

« والله اني لو لم أترك مؤاكلة الناس واطعامهم ، الا لسوء رِعة علي الأسواري لتركته . وما ظنكم برجل نهش بضعة لحم تعرقاً ، فبلغ ضرره وهو لا يعلم . فعل ذلك عند ابراهيم بن الخطاب ، مولى سليم . وكان اذا أكل ذهب عقله ، وجحظت عيناه ، وسكر وسدر وانبهر ، وتربَّد وجهه ، وعصِب ولم يسمع ، ولم يبصر ، فلما رأيت ما يعتريه وما يعتري الطعام منه ، صرت لا آذن له الا ونحن ناكل التمر والجوز والباقلي . ولم يفجاني قط . وأنا أكل تمرأ الا استَفَّه سفاً ، وحساه حسواً ، وزدا به زدوا . ولا وجده كنيزاً الا تناول القطعة كجمجمة الثور ، ثم يأخذ بخصنيها ، ويقلتها

من الأرض • ثم لا يزال ينهشها طويلاً وعرضاً، ورفعاً وخفضاً ، حتى يأتي عليها جميعاً •  
ثم لا يقع عضبه الا على الانصاف والأثلاث • ولم يفصل ثمرة قط من ثمرة • وكان  
صاحب جمل ولم يكن يرضى بالتفاريق ، ولا رمى بنواة قط ، ولا نزع قمعاً ، ولا نقي  
عنه قشراً ، ولا فتشه مخافة السوس والدود • ثم ما رأيته قط الا وكأنه طالب ثار ،  
وشحشحان صاحب طائلة • وكأنه عاشق مفتكلم ، أو جائع مقرور » (٣٥) •

آية لوحة فنية رائعة هذه التي رسمها الجاحظ بقلمه لعلّي الأسواري ،  
فتجلت فيها أدق التفاصيل ، وأغرب الحركات ، وأمتع التعليقات ، وأعذب  
التصورات !

وإن من أجمل الوصف النفسي ما ذكره الجاحظ عن محمد بن أبي المؤمل ،  
قال : « واشترى مرة شبوطة وهو ببغداد • وأخذها فائقة عظيمة ، وغالى بها  
وارتفع في ثمنها ، وكان قد بعد عهد بأكل السمك • وهو بصري لا يصبر  
عنه • فكان قد أكبر أمر هذه السمكة ، لكثرة ثمنها ولسميتها وعظمتها ولشدة  
شهوته لها • فحين ظن عند نفسه أنه خلا بها ، وتفرّد بأطاييها ، وحسر عن  
ذراعيه وصمد صمدها ، هجمت عليه ومعى السدري • فلما رآه رأى  
الموت الأحمر والطاعون الجارف ورأى الحتم المقضي ، ورأى قاصمة الظهر ،  
وأيقن بالشر ، وعلم أنه قد ابتلي بالقنن •

فلم يلبثه السدري حتى قوّر السرّة بالمبال ، فأقبل عليّ فقال :  
يا أبا عثمان ، السدري يعجبه السرر ، فما فصلت الكلمة من فيه ، حتى قبض  
على القفا ، فانتزع الجانبين جميعاً ، فأقبل عليّ فقال : والسدري يعجبه  
الأقفاء ، فما فرغ من كلامه إلا والسدري قد اجترف المتن كله ، فقال : يا أبا  
عثمان والسدري يعجبه المتون ، ولم يظن أن السدري يعرف فضيلة ذنّب  
الشبوط وعذوبة لحمه ، وظن أنه سيسلم له ، وظن معرفة ذلك من الغامض ،  
فلم يدر إلا والسدري قد اكتسح ماعلى الوجهين جميعاً • ولولا أن السدري  
أبطره وأثقله وأكمدته وملاً صدره غيظاً لكان أدرك معه طرفاً ؛ لأنه كان  
من الأكلة • ولكن الغيظ كان من أعوان السدري عليه •

فلما أكل السدري جميع أطاييها وبقي هو في النظارة ، ولم يبق في يده  
مما كان يأمله في تلك السمكة إلا الغيظ الشديد والغرم الثقيل ، ظن أن في

مائتر السمكة ما يشبعه ويشفي من قرمه . فبذلك كان عزاؤه ، وذلك هو الذي كان يمسك بأرماقه وحشاشات نفسه . فلما رأى السدريّ يفسري القرّيّ ويلتهم التهاماً قال : يا أباعثمان السدري يعجبه كل شيء . فتولد الغيظ في جوفه ، وأقلقتة الرعدة . فخبثت نفسه ، فما زال يقىء ويسلح . ثم ركبته الحمى . « (٢٦) » .

أرأيت إلى دقة تصويره للحالة النفسية لمحمد بن المؤمل وتطوّرهما ، وهو الذي كان يمني نفسه بسمكة الشبوط العذبة ، فنكب بخسارتها ؟ فهو ما إن وقع نظره على السدري حتى رأى الموت الأحمر والطاعون الجارف . . . الخ . وما إن رآه يطبق عليها حتى أكمدها امتلاً صدره غيظاً ، فمنعه الغيظ من أن يأكل ، فخبثت نفسه ، فقاء ، فسلح ، فركبته الحمى .

وابن المؤمل هذا سيكون أيضاً شاهداً على الهنات التي تنمّ على المتكلفين والمتموهين . ففي الحوار الذي دار بينه وبين الجاحظ ، ولام فيه الجاحظ صديقه على قلة عدد الخبز على طبقه ، وكان رد ابن المؤمل عليه فيه أن كثرة الخبز تورث الصدود في النفس ، وهو يريد أن يقبل الناس على مائدته بشهية ليشبعوا . . . الخ ، تسسقط الجاحظ هفوة من هفوات ابن المؤمل كشفت عن تستره على البخل بالكرم ، وعلى الحرص بالبذل ، وعلى التقتير بحسن التنظيم والنظافة ، حين قال : « فان الخبز إذا كثر على الخوان فالفاضل مما لا يأكلون لا يسلم من التلطّيح والتغمير . » ثم استطرد كاشفاً عن حقيقة طبعه ، وخبيئة نفسه دون أن يدري ، فقال : « والمردقة الغميرة والرقاقة المتلطخة ، لا أقدر أن أنظر إليها ، وأستحيي أيضاً من إعادتها . فيذهب ذلك الفضل باطلاً ، والله لا يجب الباطل . » « (٢٧) » .

## ٢/٢/٤ - السخرية والتهمك :

السخرية صفة تلازم أعمال الجاحظ بمجملها ، والمتصفح لأثاره يلمح ذلك بوضوح شديد ، ولكنها أبرز في كتاب البغلاء وأقوى ، فهو مبني في جانب منه عليها ، لأن السخرية صفة تلازم الهزل والمزح والضحك عموماً .

ثم إن قصص الجاحظ ونوادره في البخلاء تقتضي هذه الصفة اقتضاءً، وتتطلبها طلباً . أفليس كتابه قائماً على التناقضات والمفارقات ؟ تناقضات الكذب والصدق، والبخل والكرم، والنسيان والتذكر، والأثرة والايثار ، والغباء والفطنة، والفقر والغنى ، والحرص والبذل ، والبكاء والضحك ، والهجاء والثناء ، والمر والحلو ، والكسب والانفاق ، والشقوة والسعادة . الخ ؛ ومفارقات التطبّع والطبع ، والتغابي والغباء ، والتناسي والنسيان ، والتستّر والستر ، والتكلف والكلف ، والتغافل والغفلة ، والتحامق والحمق ، والتظاهر والظهور ، والتكسّب والكسب ، . الخ . إن المتأمل في مقدمة الكتاب يجد أن معظمها مسخر لآظهار هذه التناقضات والمفارقات وتتبعها لدى بخلاء الجاحظ . وليس أدعى إلى السخرية من وصف الجاحظ في المقدمة لمذهب صحّصّح في تفضيل النسيان على كثير من التذكر ، وتشبيهه المغفلين والأغبياء بالبهائم . يقول :

وسألت أن أكتب لك «مذهب صحّصّح في تفضيل النسيان على كثير من التذكر، وأنّ الغباء في الجملة أنفع من الفطنة في الجملة ، وأن عيش البهائم أحسن موقعاً في النفوس من عيش العقلاء : وأنك لو أسمنت بهيمة ورجلاً ذا مروءة ، أو امرأة ذات عقل وهمة وأخرى ذات غباء وغفلة ، لكان الشحم إلى البهيمة أسرع، وعن ذات العقل والهمة أبطأ ، لأنّ العقل مقرون بالحذر والاهتمام ، ولأنّ الغباء مقرون بفراغ البال والأمن ، فلذلك البهيمة تقنو شحماً في الأيام اليسيرة ، ولا تجد ذلك لذي الهمة البعيدة . ومتوقع البلاء في البلاء وإن سلم منه ، والغافل في الرجاء إلى أن يدركه البلاء .» (٣٨) .

ولكن سخرية الجاحظ لطيفة مستطرفة وليست لازعة مستهجنة ؛ فقد كان يشير إلى العيوب ويظهرها بظرف ومرح مستحسنين ، ولا عجب في ذلك ، فالجاحظ كما ذكرنا كان رقيق الحاشية مجباً للناس عطوفاً عليهم ، كما كان بطبعه مرحاً منطلق الوجه نزاعاً إلى الضحك والمزاح . وجملته التي أثّرت عنه تفسر ما ذهبنا إليه ، وهي قوله : « الجّد مبغضة والمزاح محبة » (٣٩) . لقد كان إذا يصدر في مزاحه وفكاهته عن محبته للناس ووده لهم وعطفه عليهم .

أما عوامل هذه النزعة الساخرة لدى الجاحظ فتعود في رأي طه الحاجري إلى : طبيعة حياة الجاحظ الذي صحب الدنيا طويلاً وتقلبت على عينيه ،

« ولا بس صنوف الجماعات وألوان الناس ملابسة استطاع بها أن ينفذ إلى مواطنهم ، ويظهر على ما يخالج نفوسهم ويوجههم في حياتهم ، ومارس ألوان الحياة ممارسة جعلته أدنى إلى فهمها وأبعد عن الافتتان بظواهرها » . يضاف إلى ذلك « دراسته المفتنة أفانين مختلفة ، الذاهبة مع شتى المعارف والآراء والمذاهب (٠٠٠) ثم روح الاعتزال التي كانت تتجه بأصحابها إلى التغفل في النواحي المختلفة للمعرفة » ، وكذلك « نزعة الجدل والمناظرة التي كانت غالبية عليه ، ثم هذه المرونة والألفة العقلية التي امتاز بها » . وهذه العوامل بمجموعها مضافاً إليها الطبع المرح ومحبة الناس ومحبة الحياة والاستمتاع بها مكنته من أن يظهر على نحو فريد متميز ، يثير سخرية رشيقة لطيفة مستحبة ، « تقصد إلى الأذواق المترفة والمدارك المرفهة ، حتى لقد يرى بعض القراء هذه الصورة أو تلك من صور السخيرة فلا يكاد ينتبه إلى مواطن السخيرية فيها ، إذ كانت سخرية الذهن الدقيق والذوق الرفيع المهذب والفن الخالص المتمكن » . (٤٠) .

وفيما يلي بعض النماذج لهذه السخيرية الشائعة في كتاب البغلاء :  
روى الجاحظ ما قاله المكي عن سليمان الذي كان يقلل من الضحك حتى لا تنفجر أساريه ، وتنطلق نفسه فيبذل ، قال :

« قال حين عوتب في قلة الضحك وشدة القلوب : ان الذي يمنعني من الضحك ان الانسان اقرب ما يكون الى البذل اذا ضحك وطابت نفسه » (٤١) .

إنه يقتصد في الضحك ، بل يضمن به على نفسه خشية أن يقوده على غفلة ، إلى شيء من البذل ، وهو لا يريد بطبعه .

وقصته مع محفوظ النقاش خفيفة الظل عذبة : قال الجاحظ :

« صحبني محفوظ النقاش من مسجد الجامع ليلاً . فلما صرت قرب منزله ، وكان منزله أقرب إلى مسجد الجامع من منزلي ، سألتني أن أبيت عنده ، وقال : أين تذهب في هذا المطر والبرد ، ومنزلي منزلك ، وأنت في ظلمة وليس معك نار ، وعندى لبناً لم ير الناس مثله ، وتمر ناهيك به جودة ، لا تصلح إلا له . فملت معه . فأبطأ ساعة ثم جاءني بجام لبناً وطبق تمر ، فلما مدت

قال : يا أبا عثمان إنه لبأ وغلظه ، وهو الليل وركوده ، ثم ليلة مطير ورطوبة ، وأنت رجل قيد طمعت في السن ، ولم تزل تشكو من الفالج طرفاً ، وما زال الغليل يسرع إليك ، وأنت في الأصل لست صاحب عشاء . فإن أكلت اللبأ ولم تبالي ، كنت لا أكلاً ولا تاركاً ، وحرشت طباعك ، ثم قطعت الأكل أشهى ما كان إليك . وإن بالغت بيتنا في ليلة سوء ، من الاهتمام بأمرك . ولم نعد لك نبيذاً ولا عسلاً . وإنما قلت هذا الكلام لبلا تقول غداً : كان وكان . والله قد وقعت بين نابي أسد . لأنني لو لم أجئك به ، وقد ذكرته لك ، قلت : بخل به وبداله فيه ؛ وإن جئت به ، ولم أحذر منك منه ، ولم أذكرك كل ما عليك فيه ، قلت : لم يشفق علي ولم ينصح . فقد برئت إليك من الأمرين جميعاً . فإن شئت أكلت فأكلة وموتة ، وإن شئت فبعض الاحتمال ، ونوم على سلامة .

فما ضحكك قط كضحكي تلك الليلة . ولقد أكلته جميعاً فما هضمه إلا الضحك والنشاط . والسرور فيما أظن . ولو كان معي من يفهم طيب ما تكلم به لأتني علي الضحك ، أو لقضى علي . ولكن ضحك من كان وحده لا يكون على شطر مشاركة الأصحاب . « (٤٢) » .

لقد قدم له صاحبه الطعام ، ولكنه ظل يحاوره ويداوره ، ويحذره ويذكره ، وينبّهه ويروّعه إلى أن سقط في يده ، فأتى الجاحظ على كل شيء ، وأمعن في الضحك .

وكان الجاحظ يكره الإفراط وتجاوز الحد في كل شيء . ولذلك علّق على حكاية ابن البخيل الذي غطى بخل أبيه وأخمل ذكره ، كما سنرى ، على شدة بخله ، بما يبين المعقول والمقبول من سواه . وابتدأ الحكاية بكلمة : « زعموا » ، التي تؤكد صفة الوضع والابتداع فيها . قال الجاحظ : « وحديث سمعناه على وجه الدهر . زعموا أن رجلاً بلغ في البخل غايته ، وصار إماماً ، وأنه كان إذا صار في يده الدرهم ، خاطبه وناجاه وفدّاه واستبطّاه . وكان مما يقول له : كم من أرض قد قطعت ، وكم من كيس قد فارقت ، وكم من خامل رفعت ، ومن رفيع قد أخملت . لك عندي أن تعرّى ولا تضحى . ثم يلقيه في كيسه

ويقول له : اسكن على اسم الله في مكان لا تهان ولا تذلل ولا تزعج منه . وإنه لم يُدْخِل فيه درهماً قطّ فأخرجه .

وأن أهله ألحوا عليه في شهوة ، وأكثروا عليه في إنفاق درهم ، فدافعهم ما أمكن ذلك . فبينما هو ذاهب إذ رأى حواءً قد أرسل على نفسه أفعى لدرهم يأخذه ، فقال في نفسه : أتلِفُ شيئاً تبذل فيه النفس ، بأكلة وشربة ؟ والله ما هذا إلا موعظة لي من الله . فرجع إلى أهله ، ورد الدرهم إلى كيسه . فكان أهله منه في بلاء ، وكانوا يتمنون موته والخلاص منه بالموت ، والحياة بدونه .

فلما مات وظنوا أنهم استراحوا منه ، قدم ابنه ، فاستولى على ماله وداره ، ثم قال : ما كان آدم أبي ؟ فان أكثر الفساد إنما يكون في الآدم ، قالوا : كان يتأدم ببجبةٍ عنده ، قال : أرونيها . فاذا فيها حَزٌّ كالجدول من أثر مسح اللقمة . قال : ما هذه الحفرة ؟ قالوا : كان لا يقطع الجبن ، وإنما كان يمسح على ظهره ، فيحفر كما ترى ، قال : فهذا أهلكني ، وبهذا أقعدني هذا المقعد . لو علمت ذلك ما صليت عليه . قالوا : فأنت كيف تريد أن تصنع ؟ قال : أضعها من بعيد فأشير إليها باللقمة . » (٤٣) .

ويلق الجاحظ على هذه الحكاية المزعومة بقوله :

« ولا يعجبني هذا الحرف الأخير ، لأن الإفراط لا غاية له . وإنما نحكي ما كان في الناس ، وما يجوز أن يكون فيهم ، مثلكه أو حجة أو طريقة . فأمثال هذا الحرف فليس مما نذكره . وأما سائر حديث هذا الرجل فمن هذا الباب » (٤٤) .

ويستبعد الجاحظ من نوادره ما ينسب من بخل إلى قوم لا يُعرفون بالبخل وإنما يتصرفون لقلّة ذات اليد . فهؤلاء ليسوا ممن يقصدهم بالبخل . قال الجاحظ : « وقد عاب ناس أهل المازح والمديبر بأمور : منها أن خشكناهم من دقيق شعير ، وحشوه ، الذي يكون فيه من الجوز والسكر ، من دقيق خشكار . وأهل المازح لا يعرفون بالبخل ، ولكنهم أسوأ الناس حالاً ، فتقديرهم على قدر عيشهم . وإنما نحكي عن البخلاء الذين جمعوا بين البخل واليسر ، وبين خصب البلاد وعيش أهل الجذب . فأما من يضيّق على نفسه لأنه لا يعرف إلا الضيق فليس سبيله سبيل القوم . » (٤٥) .

## ٥ - خاتمة :

عرضنا في السطور السابقة للفكاهة في أدب الجاحظ ، بعد إطلالة على حياته وظروفها ، وعصره وثقافته ، ومنهجه في التأليف والكتابة ، ورأينا أن مزج الجد بالهزل والوقار بالضحك والرصانة بالدعابة خاصة تمتاز بها كتب الجاحظ ومؤلفاته . ثم تتبعنا بعد ذلك بشيء من التقصي الفكاهة في كتاب البخلاء ، فتحدثنا عن مضمونه ومنهجه وأسلوبه ، وتوقفنا عند أبرز الصفات الفنية فيه . فتحدثنا عن البراعة في الوصف والدقة في التعبير وذكرنا نماذج من الوصف المادي ، ونماذج من الوصف النفسي ، وعالجنا خاصة السخرية التي وسمت أسلوب الجاحظ في كتاب البخلاء ، وبيننا عواملها ومثلنا عليها .

وفي ختام ذلك كله يتبدى لنا الجاحظ إمام عصره وأمير نثره ، ونسيج وحده ، لوى عنق البيان فكان رهن بنائه ، وأمسك بناصية المعاني فذلت له ، وخبر ثنايا الحياة الاجتماعية فأمدته بأسرارها وكنوزها ، وولد القصص فبدت على يديه واقعية ، ووضع الأحاديث فما ملتها الأسماع ، بل على النقيض ألفتها ، واستأنست بها ، وطربت لها ، واستبطن النفوس ففتحت أعماقها ، وكشفت له عن خفاياها وخبيئاتها ، ومزح وهزل وأفككه ، وجدّ ووقر ورصن فكان في كل أولئك عبقرية مبدعاً متفرداً .



## □ الهوامش والمراجع :

- ١ - الكيالي ، طاهر : الجاحظ ، الناشر : عبدالودود الكيالي ، بلا تاريخ ، صص ٢-٣ .
- ٢ - الطرابلسي ، أمجد (١٩٧٠) : حركة التأليف عند العرب ، مكتبة الفتح بدمشق ، ص ١٣٢ . وقد ذكر الطرابلسي أن كتاب الحيوان سابق في التأليف على كتاب البيان والتبيين ، بدليل أن الجاحظ أشار في كتاب البيان والتبيين إلى كتاب الحيوان غير مرة .
- ٣ - العاجري ، طه (١٩٩٠) البخلاء للجاحظ ، تحقيق وتعليق ، دار المعارف ، الطبعة الخامسة ، ص ٢٨ من مقدمة المحقق . وقد عمد العاجري إلى التقديم للكتاب بدراسة بلغت ستاً وخمسين صفحة ، ثم تلاها ترقيم للكتاب يبدأ من الصفحة الأولى . وعلى ذلك سنشير في استشهادنا إلى أن الهامش أو النص مأخوذ من المقدمة التي وضعها العاجري ، أو مأخوذ من الكتاب الذي وضعه الجاحظ يخط يده بما في ذلك مقدمته هو ، بالقول : مقدمة المحقق أو مقدمة المؤلف ، أو كتاب البخلاء .
- ٤ - هارون ، عبدالسلام (١٩٣٨) : كتاب الحيوان للجاحظ ، تحقيق وشرح ، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، الجزء الأول ، ص ٢٦ .



- ٥ - المرجع رقم ٤ ، ص ٦ .
- ٦ - المرجع رقم ٤ ، ص ٦ .
- ٧ - المرجع رقم ٤ ، ص ٥ .
- ٨ - المرجع رقم ٤ ، ص ٥ .
- ٩ - المرجع رقم ٤ ، صص ٣٨-٤٧ .
- ١٠ - المرجع رقم ٤ ، صص ٥٠-٥٢ .
- ١١ - الهنداوي ، خليل (١٩٥٢) : نصوص مدروسة في الادب العربي ، ص ٤٢٣ .
- ١٢ - المرجع رقم ٤ ، ص ٣ .
- ١٣ - هارون عبدالسلام (١٩٣٨) : كتاب الحيوان للجاحظ ... الجزء الثالث ، ص ٧ .
- ١٤ - المرجع رقم ٤ ، ص ٣٧ .
- ١٥ - نقلاً عن المرجع رقم ٣ ، ص ٢٤ . وإيفانوس هذا كاتب يوناني .
- ١٦ - المرجع رقم ٣ ، ص ٢٦ .

١٧ - المرجع رقم ٣ ، ص ٢٨ . ويذكر العاجري أن أسلوب من سبقوا الجاحظ في الحديث عن البغلاء (أسلوب اخباري يقتصر الى النزعة الفنية التي تميز بها الجاحظ من سواه . فهؤلاء كانوا يتعدثون عن البغل والبغلاء ضمن اطار الدفاع عن الدولة العربية العباسية ضد خصومها الشعوبيين فجاءت كتاباتهم ، لذلك ، اخبارية ، تكمن وراءها غاية سياسية .

- ١٨ - المرجع رقم ٣ ، ص ٣٣ .
- ١٩ - المرجع رقم ٣ ، ص ٣٣ .
- ٢٠ - المرجع رقم ٣ ، ص ٣٥ .
- ٢١ - الثعالبي مذكوراً في المرجع رقم ٣ ، ص ٣٦ .
- ٢٢ - المرجع رقم ٣ ، ص ٧ من كتاب البغلاء للجاحظ .
- ٢٣ - المرجع رقم ٣ ، ص ١ من كتاب البغلاء للجاحظ .
- ٢٤ - المرجع رقم ٣ ، ص ٥ من كتاب البغلاء للجاحظ .
- ٢٥ - المرجع رقم ٣ ، ص ٢٥ من كتاب البغلاء للجاحظ .
- ٢٦ - المرجع رقم ٣ ، ص ٤٠ من كتاب البغلاء للجاحظ .
- ٢٧ - المرجع رقم ٣ ، ص ٧ من كتاب البغلاء للجاحظ .
- ٢٨ - المرجع رقم ٣ ، ص ٥٥ من مقدمة المحقق .
- ٢٩ - المرجع رقم ٣ ، ص ٥٤ من مقدمة المحقق .
- ٣٠ - المرجع رقم ٤ ، صص ٨-٧ .
- ٣١ - المرجع رقم ٣ ، ص ٥٨ من كتاب البغلاء للجاحظ .
- ٣٢ - المرجع رقم ٣ ، ص ٣ من مقدمة الجاحظ لكتابه .
- ٣٣ - المرجع رقم ٣ ، ص ١ من مقدمة الجاحظ لكتابه .
- ٣٤ - المرجع رقم ٣ ، ص ٢ من مقدمة الجاحظ لكتابه .
- ٣٥ - المرجع رقم ٣ ، صص ٧٩-٨٠ من كتاب البغلاء .
- ٣٦ - المرجع رقم ٣ ، صص ١٠٠-١٠١ من كتاب البغلاء .
- ٣٧ - المرجع رقم ٣ ، ص ٩٥ من كتاب البغلاء .
- ٣٨ - المرجع رقم ٣ ، صص ٤-٥ من مقدمة الجاحظ لكتابه .
- ٣٩ - نقلاً عن المرجع ٣ ، ص ٥٤ من مقدمة المحقق .
- ٤٠ - نقلاً عن المرجع ٣ ، ص ٥٦ من مقدمة المحقق .
- ٤١ - المرجع رقم ٣ ، ص ١٢٣ من كتاب البغلاء .
- ٤٢ - المرجع رقم ٣ ، صص ١٢٣-١٢٤ من كتاب البغلاء .
- ٤٣ - المرجع رقم ٣ ، ص ١٣٢ من كتاب البغلاء .
- ٤٤ - المرجع رقم ٣ ، ص ١٣٢ من كتاب البغلاء .
- ٤٥ - المرجع رقم ٣ ، ص ١٢٢ من كتاب البغلاء .

